

خرائب الشام

مدينة عمان ووادي موسى

مدينة عمان قصة بني عمون شرقي الاردن على نحو مرحلتين من القدس كان اسمها ربة بني عمون وكان لها شأن كبير في الزمن القديم. لما مات ناحاش ملكها وملك حاتون ابنه ارسل النبي داود ملك بني اسرائيل وقدما لتعزيتهم فلم يكرم الوفد بل اوجس منهم خيفة وحلق لحامهم وقص اذيالهم فاغناظ داود حنة وجارية سنتين الى ان فتح ربة عاصمتهم وقتل اهلها واخذ تاجهم عن راسهم ووزنه ووزنه من الذهب مع حجر كريم

وعاد بنو عمون فسادوا وقصور ربة واعلموا اسوارها فتنبأ عاموس النبي قائلاً اضرم نارا على سور ربة فناكل قصورها. ودخلها الفرس وهم نازلون الى مصر ثم وقعت في يد البطالسة فسماها بطليموس فيلادلفس فيلادلفيا واشتهرت بهذا الاسم زماناً طويلاً وكانت من المدن العشر شرقي الاردن. وحاصرها الطيوخس للكبير سنة ٢١٨ قبل الميلاد وكانت جنود بطليموس فيلوباتر فيها فيجبر عن فتحها الى ان دله واحد من الاسرى على مجرى الماء اليها فقطعة واضطرها الى التسليم

وعظم شأن هذه المدينة في عهد الرومانيين وبنوا فيها المباني الكثيرة التي لا تزال اطلالها الى الآن شاهدة بما كانت عليه من النخامة والرونق وبما كان لاهلها من الثروة والجاه. وكل الاطلال يونانية او رومانية الاصل الا القلعة فانه يظن انها قديمة من قبل ايام الرومانيين ولعلها من عهد بني عمون

وتنصر اهل عمان مع غيرهم من اهالي مدن الشام وصارت مدينتهم كرسي اسقف ولا تزال جدران كنيستها قائمة على جانب النهر (الزرقا) وفي حجارتها روابط من الحديد او النحاس لتوثيقها او لالصاق النقوش بها واعمدتها من الرخام الابيض من الطراز الايوني وهي مصروعة الان على الترى مكسرة وبمقبرة والى جانبها كنيسة اخرى كان لها برج او هو ما دنة اضيف اليها لما حوت جامعا ولا تزال جدرانها قائمة

وعلى مقربة من ذلك حصن له برجان كبيران مستديران بينهما سور من حجارة كبيرة ضخمة مفرقة من قبل عهد الرومانيين وصلة على اربع القوائم الواحدة منها فوق الاخرى تصل بين الخندق وباب الحصن اما داخل الحصن بقراب الابدان الشرقي فانه لا يزال قائما وفيه محاريب للتنايل ونقوش كورنثة وداخل الحصن عمدة كبيرة كان سقفه مستندا عليها

ويتلو الحصن هيكلكورنثي بديع الصنعة له في جانبيه الغربي ثلاثة ابواب حول الاوسط منها نقوش من الطراز المصري . وعلى الجانب الآخر من النهر ممد فيه احد عشر عموداً لا تزال ثمانية منها قائمة وتيجانها كورنثية

وهناك مشهدان الصغير منهما لا تزال جدرانها قائمة لكن داخله خراب مملوء بالانقاض والاعمدة المكسرة والكبير من اكبر مشاهد سورية وانحطها واجملها قطر ساحته ٤٥ خطوة حولها المقاعد ٤٣ صفاً الواحد فوق الاخر كاهلة متراكمة

اما القلعة فعلى شاطئ بحر الصعود عليه وهي قسمان احدها ارفع من الآخر والقسم المرتفع مساحة سطحه عدة افدنة مغطاة بالانقاض وفيه صهريج كبير والى جنوبيه بنا سور عظيم الماجور كندر من عهد الفرس (بني ساسان) او من عهد العرب . والى غربي القلعة كثير من الاعمدة الكبيرة باقية من آثار ما كان فيه من الابنية

وحول المدينة ابراج كثيرة كانت مدافن لعظائنها مبنية بالحجر النجيت وفيها نواويس الموتى كنا نحسب ان ما وصلت اليه يد الدهر من التجريب والتدمير لقف عنده وأنه اذا سلحت حكومة البلاد تقام فيها ادارة تراقب آثارها القديمة وتهم بحفظها فلا تنقد الاثر بعد العين . ولكننا كنا نطالع مجلة القرن التاسع عشر الانكليزية قبيل كتابة هذه السطور فعثرنا في الجزء الاخير منها على مقالة لاحدى السيدات الانكليزيات زارت بلاد الشام منذ عهد قريب ووصفت البلاد الواقعة شرقي الاردن وخرائب عمان في جملتها وهاك ترجمة ما قالته " نزل السراكسة في هذه البلاد منذ بضع عشرة سنة وبنوا قراهم على خفي نهر الزرقاء (الپروق) ونواصره بعد ان هجر السكان هذه الانحاء منذ اكثر من الف سنة وودت الحياة في مدينتي اليونان عمان وحجرش وقامت اكواخ الطين بين اعمدة الشوارع القديمة وتحولت اروقة المشاهد الى مساكن ومخازن وشقت للحايرت ساحات الاندية وصارت الحمامات حظائر وبيادر . ولا شان لتلك الآثار عند السراكسة فلا يجسوتها سوى محاجر يقتلمون الحجارة منها فجدد في جدران مبانهم تيجان العمد الكورنثية وسوقها المضلعة وتجد امام اكواخهم مذابح المرمر المنقوش يستجد منها موائد بأ تكون عليها ونصب الرخام يدقون عليها الحبوب والكتابة اليونانية التي عليها نظمها اقدام نساءهم واولادهم "

لما قرأنا هذه السطور صفتنا صفقة الاواء وقتلنا لقد عجز الدهر عن ان يفجعنا بالاثربعد العين ولكن ما عجز عنه لم يعجز عنه بنو الانسان . افليس بين رجال دولتنا العلية من تأخذة الشفقة على آثار العمران والحمية على مجد الاوطان فينادي بصوت يسمعه اهل الحل والعقد

ويتمتع يد المغرب عن الميث بما بقي من هذه الاطلال . لقد بعث الينا احد نوابغ الاتراك بالصورة الفوتوغرافية المنشورة في صدر هذه المقالة وجيذا لو بعث الينا بصور غيرها من تلك المدينة لعل منظرها يغري احداً بحفظها اذا وجد الى ذلك ميلاً

ومن الصور الفوتوغرافية التي صورها ذلك النابغة العثماني وبعث بها الينا لشرحنا له ولقراء المقتطف صورة خزنة فرعون في وادي موسى وهي التي كانت معروفة عند اليونان والرومان باسم بترأ ولعلها البترأ التي ذكرها ابن هشام في غزوة النبي لبني حيان حيث قال انه سلك على غراب جبل بناحية المدينة على طريقه الى الشام ثم على نغيض ثم على البترأ . وقد وصنا هذه المدينة واهلها الانباط الذين بنوها في الجبل العشرين من المقتطف ولا بأس باعادة شيء مما ذكرناه هناك وهو

”وكانت البترأ للادوميين ثم تغلب عليها النبط جاؤوها من العراق العربي وكانوا اهل حضارة وتجارة ولقنتهم كالارامية وحروفها كالحروف الكوفية والمثنون ان الحرف الكوفي مشتق منها . وجاء في التواريخ القديمة ان اتينغولس احد قواد الاسكندر المكدوني الذي توفي سنة ٣٠١ قبل المسيح بعث حملتين على النبط في بترأ بعد ما استولى على سورية وفلسطين الاولى بقيادة قائد اسمه اثينيوس فهاجم بترأ سنة ٣١٢ قبل المسيح ورجالها غائبون عنها في سوق عمومية وغنم منها غنمية وافرة من المر واللبن وخمس مئة وزنة من الفضة ولما عاد اهلها وراوا ما حل بهم اقتفى اثره ثمانية آلاف منهم وبيوتهم وقتلوا اكثر رجاله . والحملة الثانية بقيادة ابنه ديمتريوس وبلغ خبره النبط فامتعوا عليه ولم ينلهم منه مكروه

”وذكر سترابو المؤرخ النبط في ايام اغسطس قيصر فقال ان عاصمتهم بترأ وقد سميت بذلك لان الخضور تحيط بها من كل ناحية وفيها مياه غزيرة لسقي بسايتها واكثر الارض حولها قفار ولا سينا في ما يلي اليهودية وكان تجار الهند والعرب يأتونها يضايمهم وينقلونها من هناك الى العريش وزادت هذه التجارة في ايام الرومان فاخطوا طريقاً لها من ايلة الى بترأ فدمشق وطريقاً اخرى من بترأ الى اورشليم وعسقلان وثور الشام

”واقى الفيلسوف اثينادورس صديق سترابو الى بترأ واستوطنها مدة ورأى فيها كثيرين من الرومانيين وغيرهم من الغرباء وكانوا مستوطنين فيها

”وذكرها بلينيوس في القرن الاول المسيحي وقال ان النبط يسكنون مدينة اسمها بترأ في وادي اقل من ميلين الساعاً يحيط بها جبال لا تسلك وفيها نهر جار

”وقال يوسيفوس ان الاسكندر ملك اليهود حارب عبيد ملك العرب (سنة ٩٣ قبل المسيح) وكان عبيد قد اقام له كيتاً في وعر عسر المسالك في الجولان فدخل الاسكندر وادباً عميقاً هو ورجاله ولم ينج منه الا بشق الانفس

”ثم ذكر كيفية استيلاء ملك النبط علي دمشق فقال ان انطيوخس آخر ملوك السلوقيين قصد الحرث ملك بتراء فابعد الحرث من وجهه اولاً الى حيث تمكنته البلاد من مناجزته ثم انقلب عليه بغتة بعشرة آلاف فارس من فرسانه فكاد جنود انطيوخس يولون الادبار ورأى منهم ذلك فاسرع الى لم شعبيهم وتشديد عزائمهم فاصابته ضربة قضت عليه وتفرق شمل رجاله بعده وانهمزم الذين نجوا منهم الى قرية قانا فاتوا جوعاً . وكان اهالي دمشق بكرهون بطليموس فدعوا الحرث ملك العرب وملكه عليهم

”وخضعت البترا للرومانيين في عهد تراجنس في اوائل القرن الثاني للمسيح ومنها سكنها باسم ادريانس اكراماً له وضربوا تقوذهم باسمه . ثم ذكرت في القرن الرابع والخامس والسادس وحضر مطرانها جرمانوس في المجمع السلوقي سنة ٣٥٩ . ومطرانها ثيودورس في المجمع الاورشليمي سنة ٥٣٦ ولم يبق منها الآن الا شيء من مدافنها وهي كلها وكلها منحوتة في الصخر علي جانبي الوادي وهي من اعجب ما صنعه الناس كما ترى في الصورة المدرجة في صدر هذه المقالة

والظاهر ان النبط كانوا يسمون بتراء سلعاً ومعناه الشق في الجبل لانها شق في جبل فحسب اليونان والرومان ان معناها الصخر وسموها بتراء . وابتدأ خرابها من حين قامت تدمر وعظم شأنها وانتقلت طريق التجار اليها . ولما تنصرت اهالي مصر وابطلوا تحميض موتاهم زاد شأنها ضعفاً لانه كان لاهاليها تجارة واسعة بالموميا الذي كانوا يحملونه من بحيرة لوط الى القطر المصري والبناء المرسوم في صدر هذه المقالة ليس بناء بل هو نقش في صخر وودي جميل وقد ابدع النقاشون فيه ما شاوروا وجاء كاجل المباني الرومانية . واكثر آثار هذه المدينة الباقية الى الآن منحوت في الصخر كما تقدم وبدل علي ان اصحابه كانوا علي جانب عظيم من استفحال العمران ورفاهة العيش ولا عجب في ذلك لان سكانها كانوا تجاراً والثروة والرفاهة ابنتا التجارة . وكانوا في اول امرهم يقتصرون علي التجارة ولا يهتمون بالزراعة ثم لما ضعف شان تجارتهم عادوا الى الزراعة لكنهم لم يفلحوا فيها كثيراً ولا عبرة بكتاب الفلاحة النبطية الذي ينسب اليهم لانه ليس لهم بل هو موضوع علي الراجح في نحو القرن العاشر لليلاد

والظاهر ان هذه البقعة سميت وادي موسى حسب ان موسى الكليم شق الصخر فيها واجرى منه الماء لبني اسرائيل علي ما جاء في التوراة